مشكلة الثقافة في الجزائر

بقلم عثمان سعدي

تمهيد

دخل الاستعمار الغربي العالم العربي بعد ان مهد الأتراك السبيل، ومن المسلّم به أن الجنس التركي بجفافه وبطبيعته العسكرية الجلفة كان سبباً من الأسباب الفعالة في وقف التطور الحضاري في العالم الاسلامي: فقسم العالم الاسلامي الى ايالات (دويلات) جعلت كل واحدة منها تحت تصرف مطلق لشخص او لجماعة من المرتزقة الاجلاف .

وحيث أن الجزائر جزء من هذا العالم الاسلامي، فلقد شملها الحكم التركي الذي استغل شعبها أشبع استغلال وخنق الحسّ الجماعي في مجتمعه ، فشاعت الانعزالية والفردية اليائسة بين افراد هـذا الشعب ، ولولا الأسطول الجزائري المسير ببحارة من صميم الشعب حـال دون الدول الاوروبية الطامحة للاستعمار لتعرضت الجزائر لمطامع هذه الدول قبل التاريخ المقدر لها. ولكن ابت الايام إلا أن يتحطم الاسطول الجزائري بعد ان اجتمعت عليه عدة اساطيل من مختلف الدول الغربية ، لأنه كان يأخذ ضريبة سنوية على الأساطيل الأوروبية والأميركية المارة بالبحر الابيض المتوسط .

وما كاد أسطولها يتحطم في أواخر الربع الاول من القرن التاسع عشر حتى دخلت القوات الفرنسية المحتلة (سنة ١٨٣٠). اما « الداي » الذي يمثل الحكومة الجزائرية فلقد تقدم لقوات الاحتلال طالباً منها ان تؤمنه على ماله واهله وتسمح له بالرجوع الى موطنه الاصلي تركيا. وخرج الداي التركي محملاً بأموال خزينة الدولة الجزائرية متجهاً صوب موطنه الحبيب .. ولم يبق إلا الشعب أمام قوات الاحتلال مجرداً من القوة المنظمة - الحكومة - مجرداً من الأموال التي اخذهـا الداي ، أعزل من السلاح ومن الجيش المنظم . ولكن برغم كل هذه الظروف المثبطة التي اكتنفت الشعب الجزائري من جميع النواحي فلقد استطاع هذا الشعب بفضل صبره وإيمانه بحقه في الحياة أن يتكتل في كتل موزعة على انحاء القطر فقام كل إقليم بمقاومة كتلية وكانت نتيجة هذا النوع من المقاومة أن سقطت الجزائر امام قوات الاحتلال شبراً شبراً ، واستنفدت حرب المقاومة مدة تعد أطول مـدة في تاريخ المقاومات الشعبية للاستعمار (من سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٩٠٤) . وهنا يتجلى لنا هذا الصراع العنيف الذي قام بين قوتين: قوة ممثلة في الفرنسيين بسلاحهم الحديث وجيشهم المنظم وحكومتهم القوية ، وقوة ممثلة في شعب بماضيه وبحسه الوطني القوي وبطبيعة المقاومة التي استمدها من طبيعته الجبلية الصخرية ومن صراعه مع تيارات المناخ الشديدة التقلب .

وما أن تم للفرنسيين الاستيلاء على البلاد حتى سـارعوا الى طريقة يعوضون بها ما خسروه في هذه الحروب الطويلة . فأعلنوا ان الجزائر جزء من فرنسا ، وأوقفوا تدريس اللغة العربية وجعلوا تعليمها وتعلمهـا جريمة يعاقب عليها القانون . ولم يسمحوا إلا بتحفيظ القرآن وتلقينـه . إلا أن تحفيظ القرآن بين أفراد الشعب كان بمثابة مصباح يحد من كثافة الظلام الذي اجتاح الجانب الثقافي العربي بالجزائر. وعلى أثر وقف تدريس اللغة العربية فتحت مدارس فرنسية على غرار المدارس المنتشرة في فرنسا ، ويستنتج من هذا أن فرنسا أرادت بهذه العملية ان توقف التطور الوجودي في الجزائر ثم تصرفه نحو وجهة اخرى متحدية سنن تطور الكون التي تتحكم فيها جذور غائرة في الامتداد الزمني البعيد . واتخذت سلاحها أو وسائلها من شطحات لا إنسانية. وهذا إن دل على شيء فانما يعبر أدق تعبـير عن قيمة الجنس الفرنسي في مـيزان الانسانية وموقفه من تاريخها ، يعبر عن هذا الجنس الفرنسي الذي فاجأته الحضارة مفاجأة فأحاطت به دون ان تتجاوز مظهره وتتخذ سبيلها إلى أعماق نفسه فتصقلها ، وإلى شعب حسه فتنمي بذرة الانسانية فيه : فالرحلة الزمنية التي تفصل هذا الجنس من عهده المتوحش البدائي (لاجول *La Gaule*) قصيرة جداً . هذا العهد الذي لا زال الجنس الفرنسي حتى الآن يعاني منه رواسب شديدة ... فسرعان ما نسي مباديء ثورته التي تبدو لنا ارتجالية بالنسبة للجنس الفرنسي على الأقل . فمباديء هذه الثورة الانسانية بالنسبة للفرنسي كثوب يلبسه في زمن معين وسط ظروف معينة حتى إذا ما اجتاز هذا الزمن وتلاشت هذه الظروف رجع الى وحشية عهد « لاجول ».

ومن الأدلة المادية القريبة على صحة هذه النظرية أن فرنسي القرن العشرين ديموقراطي حر بين حدود القطر الفرنسي فقط ، حتى إذا مـا اجتاز هذه الحدود إلى أراضي المستعمرات انقلب الى كائن متجرد من كل معنى إنساني : فمسيو شاتنيو *Chataigneau* مثلاً كان من أقطـاب الحزب الاشتراكي الفرنسي المشهور بدعوته الى الحريات والمساواة والعدالة. وزيادة على هذا فانه دكتور في التاريخ من جامعة السربون ، ولكن حينما تقلد هذا الرجل منصب « والي عام الجزائر » تجرد من الشخصية التي كونتها نوادي الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وتجرد من المعاني والقيم التي أخذها من مدجارت السربون وانقلب إلى سفاك بلغت ضحاياه خمسة وأربعين الف جزائري في مدة لا تتجاوز ثلاثة ايام (من ٨ مايو إلى ١١ مايو سنة ١٩٤٥) . وجاء مسيو ناجلان *Neglen* بعد شاتنيو . ناجلان ، هـذه الشخصية الاشتراكية المعروفة بتحررها وإنسانيتها في فرنسا . هذا الرجل سار على الطريق الذي سنها له زميله شاتنيو .

فمن هذين المثالين نستخرج أن الحضارة الانسانية بالنسبة للفرنسي كثوب مزخرف شفاف سرعان ما يخلعه ويرجع الى عهده البدائي (الجولوازي) وسرعان ما تخترق هذا الثوب عوارض المـادة فتكشف عن الرواسب (الجولوازية) التي حملت بها الذات الفرنسية . فاذاً فليس من الغريب أن يعلن رئيس حكومة فرنسا مسيو مانـديس فرانس (المعروف بتحرره) أمام الضمير العالمي سنة ١٩٥٤ بأن الجزائر فرنسية ولغتهـا فرنسية برغم ان أهلها يلبسون لباساً مغايراً للزي الفرنسي ويتطبعون بطبائع مغايرة تماماً للطبائع الفرنسية ، ويتكلمون لغة عربية يشهد بهـذا التاريخ والواقع والعالم أجمع .

دور الاحزاب

في الجزائر ثلاثة احزاب وطنيـة : حزب الشعب الجزائري ، وحزب البيان الجزائري ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فأما حزب الشعب الجزائري فان سياسته (السيادة الجزائرية التامة) ولقد استطاع هـذا الحزب ان يترك تأثيراً مزدوجاً في الشعب: أولاً زعزعة الرهبة الاستعمارية من نفوس

الجزائريين بحيث حول الاستعمار الفرنسي في نظر المواطنين من شبح مخيف مرعب الى شيء لا قيمة له ويمكن التخلص منه. ثانياً: استطاع هذا الحزب باخلاص رجاله وقوتهم وصدق وطنيتهم أن يجسم الحس الوطني في كيان المواطن ويوجهه التوجيه الذي يدعو إلى الاعتماد على النفس في حـــل القضية الجزائرية دون الاعتماد على الحل السياسي الذي هو لغة معقدة لا يفهمها الجنس الفرنسي. [1]

وأما حزب البيان فأثره يكاد يكون توجيهياً، فلقد علّم الشعب الجزائري او النخبة الجزائرية عـــلى ادق تعبير كيف تستفيد من الثقافة او الحضارة الفرنسية دون ان يحول التعصب والكراهية للفرنسيين بين الشعب وبين هذه الاستفادة.

واما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فتكاد تكون دينيـة ثقافية لعبت دوراً خطيراً على يد مؤسسها عبد الحميد بن باديس، فلقد استطاع هذا الرجل، رحمه الله، باخلاصه وصدق وطنيته ان يقف حائلًا دون التيـــار الفرنسي الذي كاد يجرف الجزائر ويسلخها من عروبتها وإسلامها، فأحيـــا الجانب العربي في الشخصية الجزائرية، وطهر الاسلام من الخرافات التي كانت تتسرب من خلالها مطامع الاستعمار، طهره في عقائد الجزائريين فأنشأ المدارس الحرة والمساجد الشعبية الحرة، وكون في الجزائر شيئاً من الاعتماد على النفس فعلمّه: ان امتناع الاستعمار عن تدريس اللغة العربية القومية في المدارس الرسمية لا يقف حائلًا دون تعلمها.

القوى الفعالة التي أثرت في التوجيه الثقافي

هي تلك القوى الطبيعية او الزمانية او الانسانيـــة التي تتحكم في نفسية الفرد ووجدانه وتفكيره، هـذه النفسية التي هي مركز تتفرع منه الاتجاهات الثقافية في تاريخ الامة الثقافي. ولكي نقرب هذه القوى من الافهام يجدر بنا ان نقسمها إلى ثلاثة اقسام: رواسب، وتيارات خارجية، وقوى دافعة.

أولاً **الرواسب**: هي تلك القوى الكامنة التي تتركها في الفرد طبيعة الارض او المناخ او الامتداد الزمني (التاريخ). فالطبيعة الجزائرية طبيعة صخرية وعرة تتخللها وديان عميقة وتعاريج شائكة وارتفاعات مختلفة؛ هضاب متفاوتة في الارتفاع، وقمم عالية. والمناخ متقلب صعب: امطـــار موسمية غزيرة تترتب عنها سيول جارفة، وثلوج تتكدس حتى تصـــل إلى امتـــار، ورياح في الجنوب الصحراوي تهب احياناً عاصفة جارفة. هذه الطبيعة الثابتة الجاثمة تركت في نفس الفرد الجزائري شيئاً من **الثبات على المبادىء والتمسك بالتقاليـد والتشبث بتراث الاجداد**. وهذا المناخ المتقلب الصعب ربى في هـذه الطبيعة النفسية شيئاً من **العناد يجد فيـه الفرد الجزائري لذة لاشباع طبيعته العنيدة**.

واما الرواسب الزمنية فانها لا تتكون في الفرد إلا اذا كان مجتمعه التقى في طريق امتداده الزمني بمحطات زمنية لها اهمية في مفهوم التحضر الانساني، او بمراكز بطوليـــة *Stations héroïques*، تترك اثرها في ذاكرة الفرد وفي تراثه التاريخي. فاما المراكز البطولية فان المجتمع الجزائري التقى بها سواء في عهده الجزائري القديم ام الاسلامي الحديث. التقى بهـــا في « يوغورتا » *Yugurtha* البطل الجزائري الذي خلّد تاريـــخ بطولته في الصراع الجزائري ضد الرومان المستعمرين (١٠٥ -- ١٥٤ ق. م.) التقى بها مع **الكاهنة** ضـــد العرب التي ظنتهم في اول الامر يشبهون الرومـان.. التقى بهـا في ابطال الاسطول الجزائري - الذي تحكم في ملاحـــة البحر الابيض المتوسط عدة قرون [1] -- ومن اشهرهم (ولد علي)، التقى بها في صراعه مع الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠ - ١٩٥٤) في بطولة عبد القادر (١٨٣٠ - ١٨٤٧) وفي بطولة لالّة فاطمة (١٨٤٧ - ١٨٥٧). وفي بطولة مقراني (١٨٧٠-١٨٧٢).

واما المراكز الحضارية فان المجتمع الجزائري مر بها في عهده القديم -- عهد يوغورتا -- وفي عهده الكنسي -- عهـــد سانتو جستين *Saint-Augustin*، وترتوليا *Tertulien*، ومدرسة الحلوليين *Les Métamorphoses*، ولاندور *L'ane d'or*، وفي تلك الحضارة الفكرية التي تركتها الجامعة الجزائرية التي تعتبر من اقدم الجامعات في العالم [2]. ومر بها في عهده الاسلامي عهد الحضارة الاسلامية الراقية.

ترك هـــذان النوعان من المراكز الزمنية، البطولي

---

١ تبلورت هذه الفكرة - فكرة الحل الثوري - بعـــد حوادث سنة ١٩٤٥ السابق ذكرها. فمنذ هذا التاريخ اجتمع شباب هذا الحزب وابتدأ في إعداد ثورة مسلحة انفجرت في اول نوفمبر سنة ١٩٥٤.

١ من القرن الرابع عشر حتى القرن الثامن عشر

٢ كانت تشغل هذه الجامعة القرية المسماة الآن: « مداوروش ».

والحضاري، في ذاكرة الفرد الجزائري وفي طبيعته الفكرية والوجدانية آثاراً قوية يصعب التخلي عنها .

فالرواسب الطبيعية – المناخية – خلقت الثبات والمقاومة في طبيعة الفرد الجزائري الكيانية. والرواسب الزمنية تركت آثاراً في ذاكرته وتفكيره ووجدانه . وهذه وتلك كونت في الشخصية الجزائرية الجانب الثابت المستقر الذي لعب دوراً خطيراً في الصراع مع الغزو الفرنسي المادي والروحي .

ثانياً **التيارات** : أعني بالتيارات تلك المؤثرات الخارجية المتطفلة احياناً التي تتعرض لحياة الفرد وتسلسله التطوري الطبيعي في حياة المجتمع . ومن اهم التيارات في حياة الفرد الجزائري الحديثة التيارات الاقتصادية والسياسية والتعليمية التي نجمت عن الاستعمار الفرنسي منذ قرن وربع قرن . فالتيار الاقتصادي يتلخص في ان الاستعمار الفرنسي بمجرد احتلاله للبلاد صار هو المتحكم في اقتصادياتها ؛ فافتك ضباط جيش الغزو الفرنسي الاغلبية من الاراضي الخصبة من اصحابها الجزائريين ، وحصر هؤلاء اما في مناطق جبلية صخرية ، أو طوردوا الى المناطق الصحراوية القاحلة .

والتيار السياسي هو ما قام به هذا الاستعمار من محاولة القضاء على الذاتية الجزائرية كفرض الجنسية الفرنسية على المواطن الجزائري. واما التيار التعليمي الذي هو المهم والذي يتلخص فيه التياران السابقان ، فلقد وجه له الاستعمار اهمية كبرى لانه قصد من وراء ذلك سبر غور اعماق الفرد الجزائري والقضاء على جذور شخصيته . ففرض عليه اللغه الفرنسية وعلمه كل ما يدور حول تكوين الشخصية الفرنسية [1] .

ثالثاً **القوى الدافعة** : *Les Forces Centrifuges* : هو ما صدر عن أشخاص معينين ممتازين من عمليات مزدوجة : توجيه المجتمع الى الطريق التطوري الطبيعي في اطار تسلسله وتراثه التاريخي . وصرفه عن الانحرافات التي تحاول التيارات الاجنبية أن تنحرف به فيها ، مع نزع كل معرقل من طريقه التطوري الطبيعي . وتسمى هذه العملية بالمفهوم التاريخي *L'accélération de l'histoire* . هذه العملية التي تقفز وتعجل في التقدم الحضاري التطوري للمجتمع .

ومن أمثلة هؤلاء الدافعين في تاريخ الجزائر الحديث (عبد الحميد بن باديس ، ومصالي الحاج ، ومالك بن نبي) الا أن هذه الدعوات الدافعة تختلف ، فمنها التي تختص بالسياسة ، ومنها المختصة بالدين ، ومنها المختصة بالثقافة . وفي اغلب الاحيان تكون الاستجابة السريعة للاولى والثانية لسطحيتها . وتتعطل هذه الاستجابة – ولو الى حين – في الاخيرة ، كما حصل في الجزائر ، فلقد استجيب للدعوة الدافعة السياسية التي قام بها مصالي الحاج [1] . واستجيب كذلك للدعوات الدافعة الدينية – القومية – التي قام بها عبد الحميد بن باديس والتي وجهت الشعب الى التمسك بعروبته ودينه . وكان من آثارها انتفاض عربي – اسلامي .

وأما الدعوة الدافعة الثقافية الواعية التي قام على رأسها الكاتب المذهبي الكبير مالك بن نبي الذي يتخذ اللغة الفرنسية أداة للتعبير ، والذي فضل مذهبه وفلسفته في

[1] سنرى في مقالات نأمل ان ننشرها في (الآداب) كيف فشلت هذه العملية .

[1] كان من ثمار هذه الدعوة الثورة الجزائرية الاخيرة التي انفجرت في اول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

بعض منشورات

دار الكتاب اللبناني

للطباعة والنشر

مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم

تأليف العلامة الثقة الطبرسي

يصدر هذا التفسير العظيم بشكل دوري وبثلاثين جزءاً متتالية حسب ترتيب القرآن الكريم يبتديء من جزء عمّ

صدر منه :

جزء عم ٣٠٠ غ . ل او ما يعادلها
جزء تبارك ٢٠٠ غ . ل او ما يعادلها
جزء قد سمع ٢٠٠ غ . ل او ما يعادلها
جزء الذاريات ٢٠٠ غ . ل او ما يعادلها
كيف تكتب او تكتبين رسائلك في كل المناسبات ٢٠٠ غ . ل
علمتني الحياة، ما يجب أن نعرفه عن الجنسية ١٠٠ غ . ل
عربي يقاتل عربياً (مذكرات غلوب باشا) ١٠٠ غ . ل
جمهرة قصص العرب ٢٥٠ غ . ل
مدرسة الحياة لمكسيم غوركي ١٥٠ غ . ل

عموم المراسلات والحوالات البريدية والبنكية باسم
عبد الكريم وحسن الزين صاحبا دار الكتاب اللبناني بيروت
ص . ب ٣١٧٦

كتبه العديدة [1] وبخاصة في كتابه « أسس النهضة الجزائرية » *Les Conditions de la Renaissance Algérienne* . فهذه الدعوة لم يستجب لها استجابة كاملة الى الآن بالرغم من ان سنوات قد مرّت على مولدها ، وبالرغم من انها تجمع بين الدفع السياسي والدفع الديني – القومي . الا انها تناولتهما بطريقة عميقة لا يستجاب لها من أول وهلة .

خاتمة

هذه القوى الفعالة الثلاث لعبت دورها في الجانب الثقافي من الفرد الجزائري، فالقوى الراسبة حددت الذاتية الجزائرية وثبتت تكوينها الروحي *Construction Morale* . وكانت بمثابة قوى موازية للقوة الاوروبية الغازية. ونتج عن هذا الثبات نوع من الاتجاه الثقافي معين . والتيارات الخارجية تعرضت لحياة الفرد الجزائري واتخذت جميع الوسائل للقضاء على بذور الثقافة الجزائرية الكامنة، إلا ان القوى الراسبة تصدت لها ولم تترك شيئاً من سمومها يتسرّب سوى ما اخذته الشخصية الجزائرية عن طريق لا مباشر من معانٍ إنسانية عامة تبلورت فيما بعد إلى اتجاه ثقافي معين .

واما القوى الدافعة فانها كانت إيجابية إلى حد كبير عززت القوى الراسبة ووسعت في نطاقها من ناحية، وتعاونت معها من ناحية اخرى في الوقوف امام التيارات الخارجية .

ومن البديهي جداً ان ينتج عن هذا الصراع بين هذه القوى الفعالة اتجاهات ثقافية مختلفة نستطيع ان نردها إلى أصول ثلاثة :

أولاً – الاتجاه الأدبي الشعبي : وهذا يستعمل الزجل كفن، واللغة العامة واللغات البربرية القديمة أداة للتعبير .

ثانياً – الاتجاه العربي التعليمي: وهذا يستعمل اللغة العربية الكلاسيكية اداة لتعبيره .

ثالثاً – الاتجاه الثقافي العام : وهذا يستعمل اللغة الفرنسية اداة لتعبيره .

ونأمل ان نتناول كل اتجاه على حدةٍ في بحوث سننشرها في مجلة الآداب .

القاهرة — عثمان سعدي

---

١ ومن اشهر كتبه : الظاهرة القرآنية *Le phénomène Coranique* – والدعوة الاسلامية *Vocation de l'Islam* .

دار الحرية للطباعة

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

صدر عنها حديثاً :

سيدتي مارتي

بقلم سعيد تقي الدين

الثمن ١٥٠ قرشاً

جعفر بن محمد « الامام الصادق »

بقلم عبد العزيز سيد الأهل

الثمن ٢٠٠ قرش

كفاح الشابي

بقلم أبو القاسم محمد كرّو

الثمن ١٢٥ قرشاً

أدباء الطليعة

بقلم احمد صادق

الثمن ١٠٠ قرش

صور من الاستعمار

ترجمة ياسر صواري - مروان الجابري

الثمن ١٠٠ قرش

يصدر قريباً:

ديوان ابراهيم

ديوان فقيد الشعر والوطنية « ابراهيم عبد الفتاح طوقان »

تطلب من المكتب التجاري - بيروت

شارع سوريا - بناية درويش - ص ب ٢٦٦٨